

حول إعجاز القرآن^(١)

٣

دقة الألفاظ وانسجامها

بنظم السباعي يبرسي

الأستاذ بدار المادام

أما وقد كشفنا في مقالنا الفائت عن ناحية من نواحي إعجاز القرآن الكريم هي « وضوح المعاني وائتلافها » ، فلنكشف في هذا المقال عن ناحية أخرى ؛ هي « دقة الألفاظ وانسجامها » ، قاصدين بالدقة إحكام الاستعمال ، وبالانسجام قصدا عاما يشمل ما بين اللفظ واللفظ كما يشمل ما بين اللفظ والمعنى ؛ فللفظ في تركيبه تعاشق وانسجام إلى الألفاظ ، كما له هذا إلى المعاني الجزئية له والعامية للتركيب . فأما الدقة فقد وضحت في المقدرات من صروف وأسماء وأفعال كما وضحت في التراكيب . وأما الانسجام فقد كثرت له في النوعين الأمثال . وهذا بعض ما يمكن في ذلك أن يقال .

أولا - الدقة

(١) في الحروف

من دقة القرآن في استعمال الحروف مخالفته بين (في) و(على) مخالفة يستدعيها السياق ؛ من ذلك قوله تعالى « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » ، مختارا (على) للهدى ؛ لأن صاحب الحق قوى ذو استعلاء ، ومختارا (في) للضلال ؛ لأن صاحبه فاشل ضعيف ، لا يزال منغمسا في حيرته . مترديا في هوته ؛ ولذلك قال سبحانه في آية أخرى « تالله إنك لفي ضلالك القديم » .

(١) راجع المقالين الأول والثاني في العددين الأول والثاني من السنة الثانية من « صحيفة دار العلوم » ،

ومن أدق ما يلاحظ في استعمال (على) أن العلو فيها قد يكون في حال الضلال كما رأيت في حال الهداية ، ولكن على شرط أن يكون مضعفا لا مقويا ، كما في قوله تعالى : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ » فان من ركب وجهه يزداد ضلالا كن ركب رأسه ؛ ذاك لا يبصر وهذا لا يعقل . ولذا أتى في الآية بكلمة « مكب » ، لتزيد الإضعاف قوة .

ولم تعدم (في) أن يكون لها استعمال مناظر لهذا الاستعمال في (على) ؛ فتأتى معاكسة للأصل الذي كررناه ، وذلك كما في قوله تعالى « ولقد كررنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، فالظاهر كان أن يقال : على البر والبحر ، ولكن لما كانت الآية للنة ، وكان في الحمل مظنة هلاك كانت (في) أدل على ذلك من (على) ؛ لأنها أكثر أشعارا بإحاطة الخوف منها .

ومن تلك الدقة في الاستعمال أيضا مخالفته بين في واللام في المدخول عليه من مستحقى الزكاة الثمانية في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله » فقد أدخل على الأربعة الأولى اللام ، وخالف غنص الأربعة الثانية بقي ، كي يشعر بتلك المخالفة أن الاستحقاق في الأخيرين أقوى ، وأنهم بالزكاة أولى ، إذ هي معهم لنفع عام ؛ في حين هي مع الأولين لا تعدو النفع الخاص . وهنا دقيقة زائدة تلك أنه كرر (في) تكريرا قرن بين الرقاب والغارمين ، كما قرن بين سبيل الله وابن السبيل زيادة في التوصية بهذين ، وجمعا بين النظائر .

ومنها أيضا استخدام (عن) بدلا من (في) حيث يقول : « الذين هم عن صلاتهم ساهون » ، رحمة بعباده ؛ وتسيلا ، إذ لا يخلو (مصل من سهو في صلاته) ولو عكس لما بقي لمصل صلاه ، ولحق عليه الويل المهدد به قبل الآية هؤلاء ؛ فالحيدة عن (في) إلى (عن) فصرت هذا العذاب على تارك الصلاة دون الساهين فيها ، ومن هنا نفهم الحكمة في قول ابن عباس رضي الله عنهما « الحمد لله الذي قال : « عن صلاتهم ساهون » ، ولم يقل : في صلاتهم .

ومنها وهي كثيرة قوله تعالى « فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة الميأتكم

يرزق منه وليتلف ولا يشعرون بكم أحدا ، فقد حول العطف من الفاء إلى الواو ، حيث انقطع الترتيب الذي من أجله جاءت الفاء .

(٢) في الأسماء

ومن دقته في استعمال الأسماء ، العدول عن الصيغ العادية إلى صيغ المبالغة حيث يتطلب المعنى هذا العدول ، كقوله تعالى : « الحى القيوم » ، وقوله : « علام الغيوب » ، وقوله : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، وهو كثير جداً وليس فى حاجة إلى بيان وجه العدول ، ولا إلى زيادة فى الاستشهاد ومنها التفرقة بين المترادفين وتخصيص كل واحد منهما بموضع دون نظيره ، كاستعمال السبيل للخير ، والطريق للشر ، لاضافة الأول دون الثانى إلى الله ، مثال الأول قوله تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصرية » ، ومثال الثانى قوله تعالى : « إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً » ، ولذلك كان إذا استعمل الطريق فى الخير قرنه بما يفهم ذلك ، كقوله تعالى : « يهتدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » ، وإذا استعمل فى الشر لم يك هذا إلا على سبيل التناظر ، كقوله تعالى : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ، وهنا لطيفة - وإن لم تك من مبحثنا بل من مبحث الأفراد والثنية والجمع وهو ذو مكانة فى القرآن - هى أفراد السبيل مضافا إليه سبحانه ، وجمعه قبل ذلك إشعاراً بأن الحق واحد والباطل متعدد . ومن هذا النوع أيضاً استخدام السنة للشدة والجذب ، والعام للرخاء والخصب ، قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » ، وقال : « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه ينفث الناس وفيه يعصرون » ، وذلك لما جرت عليه العرب فى استخدام السنة دون العام فى الجذب ، وإن كانت استخدمتها فى غير الجذب أيضاً .

(٣) فى الأفعال

ومن دقته فى استعمال الأفعال ، التفرقة بين الماضى والمضارع فى بناء الجمل ؛ فمع أن الجملة الفعلية للتجدد والحدوث ، فإنه يريد من ذلك فى الماضى مطلق الحدوث ، وفى المضارع تجديد الحصول ؛ انظر قوله تعالى على لسان إبراهيم : « الذى خلقنى فهو يهدين » ،

والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، كيف أتى في الخلق بالماضي .
لأنه مفروغ منه ، ثم أتى فيما بعده من الهداية والاطعام والسق والشفاء بالمضارع .
لأنه متكرر . وفي هذه الآية من نواحي البلاغة غير هذا ، استخدام ضمير
الفصل مع الأفعال المسندة إلى الله إذا كانت مظنة اشتراك ؛ كما في يهديني ويطعمني ،
ويشفيني ، وتركه إذا لم تك كذلك ، كما في (خلقني) ، وقد يقال : ولم أذن تركه مع
(يشفيني) وهو مظنة اشتراك ؟ فنقول : إنه تركه معه اكتفاء به مع يطعمني ، لأن
كليهما بمثابة فعل واحد هو يغذيني ؛ وفيها غير هذين قيد الشفاء بحال المرض ، وترك
مأمعه من الأفعال لأنه لا يطلب إلا في تلك الحال وهي عادية تطلب في كل حال .
ومنها كما في الأسماء التفرقة بين المترادفين ، كالخشية والخوف ؛ فقد خص
الأول بالخوف ينشأ من عظمة الخوف ، وجعل الثاني له يأتي من ضعف الخائف ؛
ولذلك يعبر عن الخوف من الله بالخشية ؛ قال سبحانه وهو شاهد للآتين :
• يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب • وإذا استعمل الخوف مع الله مكان
الخشية فلا بد أن تجد في التركيب ما يكمل هذا النقص كقوله : (من فوقهم) في
الآية : • يخافون ربهم من فوقهم • . وكالحجى والأتیان ، حيث يكون الأول للذوات
والثاني للأحداث قال تعالى : • ولمن جاء به حمل بعير • ، وقال : • أتى أمر الله • .
والممد في المكروه والإمداد في المحبوب ، قال : • ونمد له من العذاب مداً • ، وقال :
• وأمددناهم بفأكة • . وكالسقى لما لا كلفة فيه ، والاسقاء لما فيه كلفة ، قال تعالى :
• وسقاهم ربهم شرابا طهورا • ، وقال : • وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم
ماء غدقا • . وكالعمل لما فيه امتداد ، والفعل لما فيه عجلة ، قال تعالى : • يعملون له
ما يشاء • ، وقال : • كيف فعل ربك بعاد • . وكالتأم لازالة نقص في الجوهر ،
والتكامل لازالته في العرض ، وقد اجتمعا في قوله تعالى : • اليوم أكملت لكم
دينكم وأتممت عليكم نعمتي • . وكالاعطاء في المندوب ، والإيتاء في الواجب ؛ ولذا
كان الأول مع الصدقة ، كما في قوله : • فأما من أعطى واتقى • ، وكان الثاني مع
الزكاة ، كما في قوله : • وآتوا الزكاة • ، وهكذا .

(٤) في التراكيب

لعل من أظهر ما يذكر عن الدقة في التراكيب بالقرآن الكريم، مفاضلته بين الجمل من حيث الاسمية الموضوعية للثبوت والاستمرار، والفعلية الموضوعية للتجدد والحدوث، في الاستعمال، فقد بلغ في ذلك أسى بيان. قال تعالى: «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، فأتى في إسناد هؤلاء الناس وهم المنافقون للإيمان إلى أنفسهم بالفعلية، وفي سلبه (سبحانه) له عنهم بالاسمية لأنهم كاذبون في قلوبهم؛ وما كان ليجمعهم يعبرون عن إيمانهم بالاسمية إلا مكابرة ومجاراة إذا قرعوا بالسؤال، كما في قوله: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون»، ولذلك رد عليهم سبحانه هذا الزعم بجملة اسمية مؤكدها أقوى من مؤكدهات جملتهم حيث يقول: «ألا إنهم هم المفسدون» ولكن لا يشعرون». وعن هؤلاء المنافقين يقول جل شأنه: «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون؛ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون، فيجعل قلوبهم للؤمنين بالفعلية؛ لأنه عن غير عقيدة، ويجعله لشياطينهم بالاسمية المؤكدة؛ لأنه يقينهم واعتقادهم، وكذلك يجعله في استهزائهم بالمومنين لأنه كذلك، ثم لا يترك الآية حتى يستهزئ بهم بالاسمية كما استهزؤا، ولكنه يأتي بها خلوا من التأكيد، لأن كلامه (سبحانه) ليس محل شك وارتباب. وقال في هذا المعرض أيضا: «وإذا جاءكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، فجعل إسنادهم للإيمان إلى أنفسهم بالفعلية وكذلك نسبة الكفر إليهم وهم داخلون، لأن الأول عن غير حقيقة، والثاني غير مشكوك فيه من المخاطبين أما خروجهم بالكفر فقد جعله بالاسمية؛ إذ يجوز على المخاطبين أن يتوقعوا خروجهم مؤمنين. وقال عن إخوة يوسف: «قالوا يا أبانا مالك لا تأمننا على يوسف وإنا له لناصحون؟ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون»، فأتى بالاسمية فيما هو محل اتهام لهم من أيهم، وبالفعلية فيما عداه.

على هذا جرى القرآن؛ ولذلك كان إذا أراد الاختصاص حول الكلام إلى الاسمية، كما في قوله تعالى: «وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيا، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى»، وما هو ذا قد فعل في استخدام

ضمير الفصل ما ألمعنا إليه آنفا، من ذكره مع الفعل حين مظنة الاشتراك، وتركه إذا زالت تلك المظنة؛ على أنه قد يقال: وهل في الإيمانية والإحياء مظنة اشتراك حتى يترك الضمير؟ فنقول: إن تلك المظنة تتحقق فيهما على سبيل المجاز، بالقتل والعفو عن مستحقه، بخلافها في الخلق والإيجاد.

وكان القرآن إذا استدعى المقام بلوغ الغاية ليست بعدها في قوة الجملة غاية، يأتي بها اسمية غير فعلية المسند، ولكن مع اشتماله على الحدث عن طريق الصفات؛ انظر قوله تعالى: «أفأنتم ما تمنون، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون!»، كيف أتى باسناد الخلق اليهم فعلا، وإلى سبحانه اسما في معنى الفعل؛ وكذلك فعل في الآيات بعد، سائفا من الحاجة على سبيل الموازنات، ومعقبا كل موازنة منها بوجوه التفضيل ما يدحض الخصم ويفهم اللدود؛ ولذلك ختمها بقوله: «فسبح باسم ربك العظيم». إشارة إلى أنه سبحانه لا يستحق التسيخ سواء.

ولفضل الجملة الاسمية على الفعلية قالوا في قوله تعالى: «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين»، اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما، قال سلام قوم منكرون؛ إن سلام الخليل أو كد من سلام الملائكة؛ لأنه مرفوع على الابتداء، وسلامهم منصوب على تقدير الفعل. وليس معنى قولهم أننا لو رفعنا السلامين يكون الكلام أبلغ، كلا، فإن لكل سلام بحاله موطن من البلاغة، إذ أن إبراهيم لما كان حيث هبط عليه الملائكة وجلا خائفا يقول (قوم منكرون)، ناسب أن يستشعر الحدث في لحظة الخوف مطرحا الدوام جانبا، وهذا استدعى الاتيان بالسلام منصوبا بالفعل، لأنه أدل على الحدث من الاسم، أمّا هم فلما لم يتصور إبراهيم أنهم خائفون، أتى بسلامه مرفوعا على الابتداء، للدلالة على أن السلام ثابت لهم، وأنهم ليسوا في حاجة منه إلى تجديد؛ هذا وفي الآية شيء زائد يحسن الإلمام به، وهو أنها لما كان فيها تحية وردّها، وكانت التحية مندوبة وردّها واجبا، استنبط أن المصادر المرفوعة في القرآن للوجوب، والمنصوبة للندب؛ فمن الأول قوله تعالى: «الطلاق مرتان: فامسك بعمرك أو تسريح بإحسان»، ومن الثاني قوله: «فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب»، ولهذا اختلف في الوصية للزوجات، أو أوجه هي أو مندوبة؟ لأن قوله تعالى: «وصية لأزواجهم، قرىء بالرفع والنصب

ثانياً - الانسجام

(١) انسجام اللفظ مع المعنى

كل ما تقدم في دقة الاستعمال ، صالح أن يكون أمثلة لانسجام اللفظ مع المعنى الخاص به ؛ ولكننا هنا نقصد انسجامه مع المعنى الكلي للسياق ، فترى التركيب كله سيكون جزلاً حيث يكون المعنى فخماً ، وتراه رقيقاً حيث يكون المعنى عذياً ، ولكل مواطن ؛ فمن مواطن الأول مقامات الأوامر والنواهي ، والتذكير بالميعاد ، وضرب المثالات بمن خالف وعصى للعضات ؛ ومن مواطن الثاني مقامات الترغيب والتبشير والملاطفة والاستعطاف ؛ وأمثلة النوعين كثيرة في القرآن

قال تعالى في موطن الجزالة : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ؛ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » وقال : « ويوم نُسِّرُ الجبال وترى الأرض بارزة وحشراً ثم فلم تغادر منهم أحداً ، وعرضوا على ربك صفاً : لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن إن نجعل لكم موعداً . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ! ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » وقال في موطن الرقة : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ؛ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم ، وقال : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفياً ، قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك رب شقياً ، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً ، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ، ومن السور التي تهول جزالة وفخامة سورنا العاديات والقارعة كما أن من السور التي تذوب رقة وعذوبة سورنا الضحى والشرح -

(٢) انسجام اللفظ مع اللفظ

لم يقف الانسجام من القرآن عند حد ائتلاف الالفاظ بالمعاني ، بل تعداه الى ائتلاف اللفظ باللفظ ؛ فكان يقرن الغريب بالغريب ، والمتداول بالمتداول ؛ رعاية للنسبة وحسن الجوار ؛ فمن أمثلة الأول قوله تعالى : « قالوا تالله ثقناً تذكري يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ، لأنه وقد أتى بالتاء القرية في القسم بالنظر إلى الباء والواو ، أتى بالفعل (ثقناً) وهو أغرب من (تزال) ، وأتى بكلمة (الحرض) وهي أغرب من العاجز ؛ ليم ائتلاف اللفظي . ومن الثاني قوله تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، فانه لما كان الركون إلى الظالم فيه ميل دون مشاركة ، أتى بالمس الذي هو دون الاحراق ، وكلاهما من المتداول . ومعظم القرآن من هذا السهل المتداول الذي ما كان يخرج عليه جملة إلا اذا استدعى المعنى الكلي هذا الخروج ، كما كان لا يخرج عليه بعض الالفاظ إلا إذا كان غرضه الايتان بلفظة بارزة تنزل من كلمات التركيب منزلة الواسطة من حبات العقد ، إبراز المعناها في تلك الصورة بعينها ، مثال ذلك : (حصحص) في قوله تعالى : « الآن حصحص الحق ، و (ككب) في قوله : « فكسكبوا فيها هم والعاون ، و (ضيزى) في قوله : « تلك اذن قسمة ضيزى ،

ومن انسجام اللفظ مع اللفظ في القرآن ، أن يأتي بالجل متلاصقة ذات تساوي في الزنة ، وصلة في المعاني ، مع الصلاحية للانفصال ، كقوله تعالى : « يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، وكقوله : « الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطمئني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ، وكذلك كان يأتي بالمفردات ، كقوله تعالى : « مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات ساجدات ثيبات وأبكارا ، وكقوله : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ،

(٣) موسيقية اللفظ

ولقد جاء القرآن الكريم لهذا الانسجام البالغ موسيقى الالفاظ ، حتى نرى الحروف في الكلمات ، والكلمات في الجمل ، والجمل في الآيات ، يتحدر بعضها وراء

بعض حين النطق تحدر الماء المنهمر من الخزون إلى السهول ؛ ومن ثم سهل حفظه وترداده على الأحداث ؛ وإن من أنفع الأدلة على موسيقيته ، بحجى ، كثير من آياته على موازين الشعر مع أن الشعر غير مقصود فيه ؛ إنما جاء كذلك من قوة انسجامه وشدة تعاشعه ، كأن لحن الموسيقى لا تزال يوازن بعضها بعضا حتى تكون كلا منسجم الوقع حسن الرنين ؛ وبهذا تسنى لكثير من رجال العروض أن يودعوا حضوابط البحور آياتا من الشعر في كل بيت شطر من آى القرآن الكريم على تفاعيل البحر الذى من أجله سبق ، مختلفين فى اختيار الآيات لكثرتها فى القرآن .

فللطويل ، فن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وللهديد ، تلك آيات الكتاب الحكيم . . .

وللبسيط ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، ، وللوافر ، إذا مروا بهم يتغامزون ، ، وللکامل ، إن الذين يبايعونك إنما ، وللهزج ، وقالوا حسبنا الله ، ، وللرجز ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، ، وللرمل ، ولقد راودته عن نفسه ، ، ولل السريع ، يأيها الناس اتقوا ربكم ، ، وللنمرح ، هو الذى أنزل السكينة فى ، ، وللخفيف ، ربنا صرف عنا عذاب جهنم ، ، وللضارع ، ألم يأتكم نذير ، ، وللمقتضب ، كلما أضاء لهم ، ، وللجثث ، وهو العلى العظيم ، ، وللبتقارب ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء ، ، وللمتدارك ، إنا أعطيناك الكوثر ، ، وللمخلع البسيط ، وقودها الناس والحجاره ،

ولم يك اقتصار هؤلاء على الأشتار ناشئا عن عدم وجود البيت كاملا فى القرآن ، بل لأن حاجتهم فى الضبط تقضى بحجى العجز وحده ، لأنهم يودعون الصدر تفاعيل البيت ، ولو أرادوا لفعلوا ، فن الآيات الموازنة لأوزان البحور قوله تعالى على وزن الوافر : ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، وقوله على وزن الرمل ، وجفان كالجواب وقدور راسيات ، وهكذا وجماع القول أنه قد اجتمع لآى القرآن الكريم من المزايا فى المعانى والألفاظ ما علا به سائر الكلام علوا استأثر فيه بمعجزة الإعجاز .